



الإمتاع والمؤانسة

مُسَامِرَاتُ سَبْعٍ وَثَلَاثِينَ لَيْلَةً قَضَاهَا التَّوْحِيدِيُّ

فِي مُنَادِمَةِ الْوَزِيرِ الْعَارِضِ

"الإمتاع والمؤانسة" كتابٌ لأبي حَيَّانَ التَّوْحِيدِيِّ، يُعَدُّ مِنْ عِيُونِ الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ؛ إِذْ يُضَمُّ مُسَامِرَاتِ سَبْعٍ وَثَلَاثِينَ لَيْلَةً قَضَاهَا التَّوْحِيدِيُّ فِي مُنَادِمَةِ الْوَزِيرِ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ الْعَارِضِ، وَهُوَ فِي ثَلَاثَةِ أَجْزَاءٍ، كَمَا يُضَمُّ الْكِتَابُ أَضْوَاءً كَاشِفَةً لِحَيَاةِ الْأَمْرَاءِ فِي النِّصْفِ الثَّانِي مِنَ الْقَرْنِ الرَّابِعِ، وَلِذَا كَانَ يَدُورُ فِي مَجَالِسِهِمْ مِنْ حَدِيثٍ وَجِدَالٍ وَخُصُومَةٍ.

وَلِهَذَا الْكِتَابِ قِصَّةٌ مُتَمَعَّةٌ، ذَلِكَ أَنَّ أَبَا الْوَفَاءِ الْمُهَنْدِسَ كَانَ صَدِيقًا لِأَبِي حَيَّانَ وَالْوَزِيرِ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ الْعَارِضِ، فَقَرَّبَ أَبُو الْوَفَاءِ أَبَا حَيَّانَ مِنَ الْوَزِيرِ، وَوَصَلَهُ بِهِ، وَمَدَحَهُ عِنْدَهُ، حَتَّى جَعَلَ الْوَزِيرُ أَبَا حَيَّانَ مِنْ سُهَّارِهِ، فَسَامَرَهُ سَبْعًا وَثَلَاثِينَ لَيْلَةً، كَانَ يُحَادِّثُهُ فِيهَا، وَيَطْرَحُ الْوَزِيرُ عَلَيْهِ أَسْئَلَةً فِي مَسَائِلٍ مُخْتَلِفَةٍ فَيُجِيبُ عَنْهَا أَبُو حَيَّانَ.

عَلَى كُلِّ مَا دَارَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْوَزِيرِ مِنْ دَقِيقٍ وَجَلِيلٍ وَحُلُوٍّ وَمُرٍّ، فَكَانَ "الإمتاع والمؤانسة".

وَلِلْكِتَابِ نَصِيبٌ كَبِيرٌ مِنْ اسْمِهِ، فَهُوَ مُتَمَعٌ عَلَى الْحَقِيقَةِ؛ فَقَدْ خَاضَ كُلُّ بَحْرٍ، وَغَاصَ فِي كُلِّ لُجَّةٍ، فَابْتَدَأَ أَبُو حَيَّانَ كِتَابَهُ صُوفِيًّا، وَتَوَسَّطَهُ مُحَدِّثًا، وَخَتَمَهُ سَائِلًا مُلْحِفًا.

قَسَمَ أَبُو حَيَّانَ كِتَابَهُ إِلَى لَيَالٍ، فَكَانَ يَدُونُ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ مَا دَارَ فِيهَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْوَزِيرِ عَلَى طَرِيقَةٍ: "قَالَ لِي"، وَ"سَأَلَنِي"، وَ"قُلْتُ لَهُ" وَ"أَجَبْتُهُ".



وَكَانَ الَّذِي يَقْتَرِحُ الْمَوْضُوعَ دَائِمًا وَيَطْرَحُ السُّؤَالَ هُوَ الْوَزِيرُ، وَأَبُو حَيَّانَ يُجِيبُ عَمَّا سُئِلَ، لِذَا كَانَتْ مَوْضُوعَاتُ الْكِتَابِ مُتَنَوِّعَةً

تَنَوُّعًا طَرِيفًا لَا تَخْضَعُ لِتَرْتِيبٍ وَلَا تَبْوِيبٍ، إِنَّمَا تَخْضَعُ لِحُطَّوَاتِ الْعَقْلِ وَطَيْرَانِ الْخَيَالِ، وَشُجُونِ الْحَدِيثِ، حَتَّى لَنَجِدَ فِي الْكِتَابِ مَسَائِلَ مِنْ كُلِّ عِلْمٍ

وَفَنٍّ؛ أَدَبٌ وَفَلَسَفَةٌ وَحَيَوَانٌ وَمُجُونٌ وَأَخْلَاقٌ وَطَبِيعَةٌ وَبَلَاغَةٌ وَتَفْسِيرٌ وَحَدِيثٌ وَغِنَاءٌ وَلُغَةٌ وَسِيَاسَةٌ وَتَحْلِيلٌ شَخْصِيَّاتٍ لِفَلَسَفَةِ الْعَصْرِ وَأَدْبَائِهِ وَعِلْمَائِهِ، وَتَصْوِيرٌ لِلْعَادَاتِ وَأَحَادِيثِ الْمَجَالِسِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يَطُولُ شَرْحُهُ.

وَفِي الْكِتَابِ النَّصُّ الْوَحِيدُ الَّذِي كَشَفَ لَنَا عَنْ مُؤَلَّفِي إِيخْوَانِ الصَّفَا، وَقَدْ نَقَلَهُ الْقَفْطِيُّ عَنْهُ، إِذْ كَانَ الْوَزِيرُ قَدْ سَأَلَ أَبَا حَيَّانَ عَنْ هَذِهِ الرَّسَائِلِ وَمَنْ أَلْفَهَا.

وَأُسْلُوبُ أَبِي حَيَّانَ فِي الْكِتَابِ أُسْلُوبٌ أَدَبِيٌّ رَاقٍ كَعَهْدِهِ فِي سَائِرِ كِتَابَاتِهِ، فَيُمْكِنُ الْقَوْلُ بِأَنَّهُ وَإِنْ كَانَ "أَلْفَ لَيْلَةٍ وَلَيْلَةٍ" يُصَوِّرُ أَبَدَعَ تَصْوِيرٍ الْحَيَاةَ الشَّعْبِيَّةَ فِي مَلَاهِيهَا وَفِتْنَتِهَا وَعَشَقِهَا، فَ"الإمتاع والمؤانسة" يُصَوِّرُ حَيَاةَ الْوُزَرَاءِ؛ كَيْفَ يَبْحَثُونَ، وَفِيمَ يُفَكِّرُونَ. وَكِلَاهُمَا فِي شَكْلِ قِصَصِيٍّ مُقَسَّمٍ إِلَى لَيَالٍ، وَإِنْ كَانَ "الإمتاع والمؤانسة" حَظُّ الْخَيَالِ فِيهِ أَقَلٌّ مِنْ "أَلْفَ لَيْلَةٍ وَلَيْلَةٍ".

وَأَبُو حَيَّانَ عَلِيُّ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ الْعَبَّاسِ



التَّوْحِيدِيُّ الْبَغْدَادِيُّ، فَيْلَسُوفٌ مُتَّصِفٌ، وَأَدِيبٌ بَارِعٌ، مِنْ أَعْلَامِ الْقَرْنِ الرَّابِعِ الْهَجْرِيِّ وَأَوَائِلِ الْخَامِسِ. عَاشَ أَكْثَرَ أَيَّامِهِ فِي بَغْدَادَ وَإِلَيْهَا يُنْسَبُ، وَقَدْ اِمْتَأَزَ

بِسَعَةِ الثَّقَافَةِ وَحِدَّةِ الذِّكَاةِ وَجَمَالِ الْأُسْلُوبِ، كَمَا اِمْتَأَزَتْ مُؤَلَّفَاتُهُ بِنَتْنُوعِ الْمَادَّةِ، وَغَزَاةِ الْمُحْتَوَى؛ فَضْلًا عَمَّا تَضَمَّنَتْهُ مِنْ نَوَادِرِ وَإِشَارَاتٍ تَكْشِفُ بِجَلَاءٍ عَنِ الْأَوْضَاعِ الْفِكْرِيَّةِ وَالِاجْتِمَاعِيَّةِ وَالسِّيَاسِيَّةِ لِلْحَقِيقَةِ الَّتِي عَاشَهَا، وَهِيَ بَعْدَ ذَلِكَ مَشْهُونَةٌ بِأَرَاءِ الْمُؤَلَّفِ فِي رِجَالِ عَصْرِهِ مِنْ سِيَاسِيِّينَ وَمُفَكِّرِينَ وَكُتَّابٍ.

جَدِيرٌ بِالذِّكْرِ أَنَّ مَا وَصَلْنَا مِنْ مَعْلُومَاتٍ عَنْ حَيَاةِ التَّوْحِيدِيِّ قَلِيلٌ وَمُضْطَرِبٌ، وَأَنَّهَا لَا تَعْدُو أَنْ تَكُونَ ظَنًّا وَتَرْجِيحًا؛ أَمَّا الْيَقِينُ فَلَا يَكَادُ يَتَجَاوَزُ مَا ذَكَرَهُ أَبُو حَيَّانَ نَفْسَهُ عَنْ نَفْسِهِ فِي كُتُبِهِ وَرَسَائِلِهِ، وَلَعَلَّ هَذَا رَاجِعٌ إِلَى تَجَاهُلِهِ مِنْ قَبْلِ أَدْبَاءِ عَصْرِهِ وَمُؤَرِّخِيهِ؛ ذَلِكَ الْمَوْقِفُ الَّذِي تَعَجَّبَ مِنْهُ يَاقُوتُ الْحَمَوِيُّ فِي مُصَنَّفِهِ الشَّهِيرِ "مُعْجَمِ الْأَدْبَاءِ" مَا حَذَا الْحَمَوِيُّ إِلَى التَّقَاطُطِ شَذَرَاتٍ مِمَّا وَرَدَ فِي كُتُبِ التَّوْحِيدِيِّ عَرَضًا عَنْ نَفْسِهِ وَتَضَمِينِهَا فِي تَرْجِمَةٍ شَغَلَتْ عِدَّةَ صَفْحَاتٍ مِنْ مُعْجَمِهِ ذَلِكَ، كَمَا لَقِبَهُ بِشَيْخِ الصُّوفِيَّةِ وَفَيْلَسُوفِ الْأَدْبَاءِ؛ كَنُوعٍ مِنْ رَدِّ

الاعْتِبَارِ لِهَذَا الْعَالِمِ الْفَذِّ.